

البداية والنهاية

وأما ثوبا فتحدثنا إلى الغروب قال كثير فرجعت حتى انخت بهم فقال أبو بئينة ما ردك يا ابن أخي فقلت أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك فقال وما هي فأنشدته وبئينة تسمع من وراء الحجاب ... فقلت لها يا عز أرسل صاحبي ... * إليك رسولا والرسول موكل ... بأن تجعلني بيني وبينك موعدا ... * وأن تأمريني مال الذي فيه أفعل ... وآخر عهدي منك يوم لقيتني ... * بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

فلما كان الليل أقبلت بئينة إلى المكان الذي واعدته إليه وجاء جميل وكنت معهم فما رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن منادات وانفض ذلك المجلس وما أدري أيهما أفهم لما في ضمير صاحبه منه .

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ولم يزن قط ولم يسرق ولم يقتل النفس وهو يشهد أن لا إله إلا الله قال أظنه قد نجا وأرجو له الجنة فمن هذا قال أنا فقلت الله ما أظنك سلمت وأنت تشب بالنساء منذ عشرين سنة ببئينة فقال لا نالتني شفاعة محمد (ص) وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها بريئة قال فما برحنا حتى مات قلت كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبد العزيز بن مروان فأكرمه وسأله عن حبه بئينة فقال شديدا واستنشدته من أشعاره ومدائحه فأنشده فوعده أن يجمع بينه وبينها فعاجلته المنية في سنة ثنتين وثمانين C آمين .

وقد ذكر الأصمعي عن رجل أن جميلا قال له هل أنت مبلغ عني رسالة إلى حي بئينة ولك ما عندي قال نعم قال إذا أنامت فاركب ناقتي وألبس حلتي هذه وأمره أن يقول أبياتا منها قوله ... قومي بئينة فاندبي بعويل ... * وابكي خليلا دون كل خليل

فلما انتهى إلى حيهم أنشد الأبيات فخرجت بئينة كأنها بدر سرى في جنة وهي تتثنى في مرطها فقالت له ويحك إن كنت صادقا فقد قتلتنني وإن كنت كاذبا فقد فضحتني فقلت بلى والله صادق وهذه حلته وناقته فلما تحققت ذلك أنشدت أبياتا ترثيه بها وتأسف عليه فيها وأنه لا يطيب لها العيش بعده ولا خير لها في الحياة بعد فقده ثم ماتت من ساعتها قال الرجل فما رأيت أكثر باكية ولا باكية من يومئذ .

وروى ابن عساكر عنه أنه قيل له بدمشق لو تركت الشعر وحفظت القرآن فقال هذا أنس بن مالك يخبرني عن رسول الله (ص) أنه قال إن من الشعر لحكمة